

الرواية والامبريالية

أ. إبراهيم بوخالفة*

تاريخ الاستلام: 26-10-2018 تاريخ القبول: 01-12-2019

الخلاصة: الرواية هي الجنس الأدبي الأكثر قدرة على استيعاب حركة التمدد الغربي خارج أوروبا، وبعيدا عن حدودها. ونظرا لعلاقة السرد بالامبراطورية فإن الرواية الانجليزية والفرنسية هي من أكثر الأنواع الأدبية تطورا فنيا وفكريا. فهي التي ترافق الأوروبيين خارج حدودهم وتستوعب كل تجاربهم ورؤاهم وعقائدهم. وهي التي تعمل على نشر ثقافة الرجل الأبيض حيثما حلّ وتسوّغ تسيده على الشعوب غير الأوروبية حيثما كانت.

الكلمات المفتاح: الثقافة؛ الامبريالية؛ الامبراطورية؛ الرواية؛ الأصلاني؛ المستعمرات.

Article Summary :

The novel was the gender that was able to assimilate the spreading of the western movement outside Europe and far from its borders ;

Because of the relation between narration and the Empire , the English and the French novel were the most powerful types literature developed in art and thinking :

* جامعة مرسلتي عبد الله تيبازة، البريد الإلكتروني Boukhalifa.brahim@gmail com

(المؤلف المرسل)

All the experience, the visions and dogmas of Europeans were assimilated by these types of literature (the novel) outside Europe and his helps in spreading of the culture of the white man wherever he settles and justifies his mastership over the non-European peoples wherever they are.

Key words : Culture ; empire ; the novel ; the original ; the colonies The novel and the imperialism.

مقدمة: بدءا من القرن التاسع عشر ستهيمن الرواية على الساحة الأدبية في الغرب وستزحف بعد ذلك وبسرعة مذهلة على العالم العربي وغير الأوروبي عموما. وقد اقترن ذلك مع زحف الوجود الأوروبي خارج حدوده، حتى غدونا لا نفكر في الرواية بمعزل عن الامبراطورية التي لا تفتأ تتوسع ويتعاضم دورها الريادي والقيادي لكل شعوب اليابسة. من هنا بدا وكأن الرواية ذات علاقة حميمية وعضوية مع الامبراطورية الغربية فهي التي تسرد مصالحها، وتوَلَّى الدفاع عن وجودها وتبريره حيث يتوجب ذلك، وهي التي تعمل جاهدة على استيعاب تناقضاتها وتجاوز إكراهاتها، والتأسيس لتقاليد جمالية وأخلاقية تعمي على مراميها اللاأخلاقية.

سنسعى من خلال هذا المقال إلى الكشف عن التواشج والالتحام التاريخي والتكويني بين الرواية باعتبارها مصنعا ثقافيا حديثا وبين حركة التوسع للامبراطورية الغربية خارج حدودها بدءا من القرن الثامن عشر. وسنمثل لهذه العلاقة من خلال نصوص سردية كُتبت بالتزامن مع هذا التوسع والتمدد، الذي يهدف إلى اكتشاف العالم المحيط بأوروبا والهيمنة عليه والحاقه في مرحلة متأخرة بالمركز. سنعرض بالتحليل لثلاثة نصوص سردية نحسبها كافية للكشف عن الروابط الخفية والظاهرة بين الرواية والامبريالية. أولى النصوص

التي شتملها الدراسة هي "روبسون كروزوي"، وتليها تمرّد في سفينة باوند" ثم "ثمانون يوما حول العالم".

من الملحمة إلى الرواية: كانت الملحمة - ذلك الجنس الأدبي الذي لازم العصور الأدبية السحيقة- صوت سادة المجتمعات القديمة وحواراتها مع الآلهة وانسجامها الوجودي والجمالي مع الكون أحادي القطب. لم تكن الملحمة تولي اهتماما للبشر الزائدين في المجتمع، ولم تكن تنصت للمسحوقين من العبيد والنساء والفلاحين. فهؤلاء خارج مجال انشغالاتها. في الملحمة نحن مغمورون بصوت الآلهة التي تبارك نبلاء المجتمع وحكامه والقادة العسكريين الأبطال هؤلاء فقط هم الذين يسمع لهم صوت وهم فقط الذين يمثلون ويحتفى بهم. "إنّ عالم الملحمة هو عالم الماضي القومي البطولي عالم البدايات والقمم في التاريخ القومي، أي عالم الآباء والأجداد، عالم الأولين والسلف الصالح"¹. في الشأهامة على سبيل التمثيل يعلو صوت أبطال بلاد فارس في معاركهم الملحمة والمدعومة من طرف آلهتهم، ومن طرف عالم الجن والسحرة، والأفاعي. فقوى الطبيعة وما وراء الطبيعة كلها طوع القادة والملوك. أمّا التّابعون فلا حضور لهم مطلقا. فلا تحضر أسماءهم ولا تذكر خصائلهم وليس لهم حضور إلا باعتبارهم خدما وأدوات في أيدي السّادة والإقطاعيين.

لقد وصلت إلينا الملحمة وهي "تتمتع بكمال تام"² من الناحية الشكلية والجمالية ومن ناحية مضامينها. إنها شكل منجز، يعود إلى العهود السحيقة. ولا نملك أن نغيّر فيه شيئا، لا من حيث التقاليد الجمالية ولا من حيث المرجعية الأخلاقية. "إنّ الدّأكرة وليس نشاط المعرفة هي التي تمثّل الطّاقة الأساسيّة والقوّة الإبداعية للأدب القديم. كانت الأمور هكذا ويجب ألا نغيّر فيها شيئا. إنّ أسطورة الماضي مقدّسة"³. ومن هذه النّاحية فهي الجنس الأدبي الأطول عمرا، والأقدر على المحافظة على تقاليدها الفنيّة والبنويّة. لقد

تعايشت مع أنواع أدبية كثيرة عاصرتها وتكاملت معها، من دون أن تذوب فيها، أو أن تنسلخ من ذاتها.

أما الرواية التي انبثقت عن شكل مجتمعي مخالف تماماً للمجتمعات القديمة ذات النظام الإقطاعي، فهي "النوع الوحيد الذي لا يزال قيد التكوين والوحيد الذي وُلد وترعرع في العصر الجديد للتاريخ العالمي"⁴. إنها شكل غير منجز ويتعذر على التثمين والتحديد الجمالي والشكلي. إنه شديد الارتباط براهنه، ولا يفتأ يتجدد ويتطور ويتغير ومن هنا فلا يمكن الانتهاء عند عتبة شكلية نهائية، تفضي به إلى الثبات والسكون. ومن هنا يتوضع سؤال ملحا حول نشوء هذا الجنس الأدبي، ما علاقته بما قبله وبما بعده، وما علاقته بالمجتمع الذي خرج من رحمه؟

كثيرة هي النظريات التي حاولت الإحاطة بجنس الرواية، متسائلة عن سر انتشارها السريع، وقدرتها العجيبة على الهيمنة وشد الانتباه إلى عالمها السري والحكائي. منهم من ربطها بولع الإنسان بالحكي والمحادثة والمحاورة، فهي إذن وليدة الثقافات الشفهية أصلاً، ومنهم من ربطها بنمط إنتاج اقتصادي ونظام اجتماعي معينين. ومنهم من أرجعها إلى أشكال بسيطة من المحاورة الشعبية الساخرة والفولكلور. "فقد تميزت فترة النهضة بعامّة، والنهضة الفرنسية بخاصّة، بالميدان الأدبي قبل كلّ شيء آخر. ذلك أنّ الثقافة الشعبية الساخرة وفي أرقى إمكاناتها، ارتفعت إلى مصافّ الأدب الرفيع"⁵. ومنهم من ربطها بالظاهرة الاستعمارية والامبريالية العالمية، وهي بالتالي لازمت الدول الغربية في كلّ الأقاليم التي هيمنت عليها، ورافقتها في مغامراتها وصراعاتها من أجل البقاء والاستقواء على الأصلايين.

ولعلّ أهم نقاد القرن العشرين، ميخائيل باختين هو من بين منظري الرواية الأكثر أصالة وعمقا. فقد ذهب إلى أنّها تخلّقت من رحم الأنواع الأدبية النبيلة التي استحضرت في الزمن الحاضر من ماضيها الملحمي، وأنتزعت قداسها

وأخترت أشكالها وأستبدلت أسئلتها وبلاغتها. يجادل ميخائيل باختين بأن البحث عن الجذور الحقيقية للرواية يجب البحث عنها في الضحك الشعبي المرتبط بالفولكلور وبالمحاكاة الساخرة. لقد ربط هذا الناقد بين صعود نجم الرواية وظهور اللغة الشعبية⁶ التي تخلصت من صنيعة المقدس واحتفت بكل ما هو إنساني وتاريخي.

يغدو الحاضر والمعاصر والراهن في حد ذاته بكل مفارقاته العجيبة وعبيثته موضوعاً للضحك المزدوج، يبعث على السرور ويهدم قيماً منحطة في نفس الوقت. ومن هنا "نشأت علاقة جديدة أصلاً على اللغة والكلام"⁷ الذي تعلق بوظيفة جديدة لم تكن معهودة من قبل. كان الإنسان القديم يرى أن اللغة متعلقة بالآلهة وبالأبطال وبالماضي المقدس وليس من شأنها الإنشاء الدنيوي المنحط. ومن هنا انبثاق ما يسميه باختين بـ"المحاكاة الساخرة" (Parodie) التي، تشوّه الأنواع الأدبية النبيلة، والأساطير القومية، ويصبح الماضي المطلق والأبطال والآلهة وأنصاف الآلهة، كل ذلك يمدّنا بموضوعات معاصرة في نصوص المحاكاة الساخرة. ويتم استعمال اللغة الدنيوية المنحطة للتعبير عن ماضٍ فقد قداسته وهيبته وأضحى مبعثاً للسخرية والضحك. إنّنا نتحدث عن بداية تفكك النظام الإقطاعي في البدايات الأولى لعصر النهضة، بفعل الشرارة الأولى للثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. وكان لابد أن يرقّ هذا التفكك في نمط الإنتاج المادي تفككاً على المستوى الاجتماعي كما على المستوى الثقافي.

أفرزت الثورة الصناعية تراتبية اجتماعية محدثة، بحيث تشكلت طبقة اجتماعية عمالية في عمق المدن الصناعية الجديدة، واقتضت شروط حياة جديدة، وأنظمة سياسية متناغمة مع التحوّلات الاقتصادية العميقة. هذه البنية التحتية المتشكلة حديثاً تبعثها بنية فوقية ذات طبيعة دنيوية مدفوعة بروح ثورية وحماسية لا نظير لها في تاريخ المجتمعات الغربية.

وعلى تخوم هذه التحوّلات الجذريّة والعنيفة اختفت بعض الأجناس الأدبيّة التي لم تعدّ تتلاءم مع البيئة الثقافيّة والاجتماعيّة الجديدة. وظهرت على السطح أنواع أدبيّة جديدة لم تكن واضحة المعالم في عهد الإقطاع. كانت القوى الثقافيّة والاجتماعيّة تعمل في اتجاهين. اتّجاه يُجهد في الحفاظ على الخصائص الداتيّة للمرحلة وتعزيزها وتقويتها ومقاومة قوى التغيّر الرّاحفة واتّجاه يسعى للتخلّص من العناصر التي لم تعدّ تتلاءم مع معالم العصر الجديد. انطلاقاً من هذا الإدراك الجدلي للصراع التاريخي بين القديم والمحدث اختفت الملحمة لكونها لم تعدّ قادرة على مقاومة التغيّر إنّ على المستوى الجمالي أو الفلسفي. إنّها الجنس الأدبي الأقدر على تبني أسئلة الفكر الإقطاعي بكل مدلولاته السّوسيوولوجيّة والأخلاقيّة والفنيّة. وبتلاشي معالم النّظام الإقطاعي فقدت الملحمة فضاءها الثقافيّ لصالح الرواية التي ألّفت نفسها الأقدر على تبني هموم الطبقة البرجوازيّة التي أضحت تتصدّر المشهد السّياسي، ومعالجة تناقضات المجتمعات الرأسماليّة التي تشكّلت على هامش الثورة الصناعيّة.

تعايشت الرواية مع عالم منحط، قد هجرته القيم الإنسانيّة والمثل العليا وهيمنت عليه معايير القوّة والعنف والسّلطة المتوحّشة. فقد العالم قداسته وآلهته المتخيّلة وأوهامه بحلول النّظام الرأسمالي، ووجد الفرد نفسه في مواجهة مصيره بين مخالب الآلة الجهنميّة للإنتاج. في هذا الجو المحموم بالتناقضات ازدهرت الرواية وأخصبت وهيمنت على السّاحة الثقافيّة. غير أنّ طبيعة النّظام الدّاخليّة للمجتمعات الغربيّة ليست السّبب الوحيد لهذا الانتشار السّاحق للرواية على حساب الأجناس الأدبيّة الأخرى. توجد عوامل أخرى خارجيّة أسهمت بشكل واضح في تطور السرد الروائي على مستوى عالمي. وقد أشار إدوارد سعيد في أطروحاته الثقافيّة إلى العلاقة الحميمة والعضويّة بين الثقافة والامبرياليّة، في كتاب يحمل هذا العنوان.

الرواية والامبريالية: يجادل إدوارد سعيد أنّ التفكير في الرواية بمعزل عن الامبريالية يؤدي إلى أفق مسدود. فإذا كانت أوروبا الاستعمارية قد هيمنت على أزيد من ثلثي اليابسة بحلول النصف الأول من القرن العشرين، وأنّها تمكّنت من فرض ثقافتها على المناطق التي تتحكّم فيها، فإنّه يمكننا أن نتخيّل إلى أي حدّ يمكن الرّبط بين الامبريالية والرواية. "فمن 1815، إلى 1914، اتّسع مجال السيطرة الأوروبية الاستعمارية المباشرة من حوالي 100/35 من سطح الأرض إلى حوالي 100/85 منه"⁸. لنذكر فقط أنّ الرواية الحديثة في الجزائر ظهرت بلغة المستعمر، وبمعايير جمالية غربية، وقد ولدت محمّلة بمرجعيات ثقافية غربية متجاهلة الثقافة المحلية للأصلايين. "لقد أقامت الحضارة الغربية جنودها ومؤسساتها المالية ومزارعها ومبشّريها في العالم بأسره. وقد تدخلت مباشرة أو غير مباشرة في حياة السّكان الملونين، وقد قلبت رأساً على عقب نموذج وجودهم التقليدي سواء بفرض نموذجهما أم بإقامة الشّروط التي تؤدّي إلى انهيار الأطر القائمة دون استبدالها بشيء آخر"⁹. كانت الحكومات الغربية تستعين بالرحالة والمستشرقين وعلماء الإناسة من أجل تحييد الرّفّض الشّعبي للأصلايين، وكان مسعاها تدميري بالنسبة للثقافات المعادية لوجودها. وعملت من خلال المؤسسة الأدبية على تثبيت ثقافتها وفرض لغتها في كل مناحي الحياة.

ولأنّ الرواية نشأت قبل نشوء الظّاهرة الاستعمارية، وأنّها انبثقت مع صعود الطبقة البرجوازية للحكم، فإنّه من غير الوارد مطلقاً القول بأنّ الامبريالية أو الاستعمار هو الذي أبدع هذه المؤسسة الثقافية. كما يستبعد إدوارد سعيد "أنّ الرواية أو الثقافة بالمعنى الواسع قد سبّبت الامبريالية. بل إنّ الرواية من حيث هي مصنّعة ثقافيّة من مصنّفات المجتمع الطبّقوسطي والامبريالية غير قابلين للخطور بالبال منفصلين إحداهما عن الأخرى"¹⁰. لقد كانت الجذور الأولى للرواية من وجهة نظر باختين موجودة في المرويات الشّعبيّة وفي الفولكلور، وفي ثقافة الضّحك، الموروثة عن الأسلاف وتطوّرت إلى ما يشبه الجنس الأدبي

المستقل والتميز عن بقية الأجناس الأدبية المكتملة النضوج، وظل هذا الجنس يتوسع ويستوعب أشكالاً ثقافية غريبة عنه، ويغير من شكله مع تغير العصور وتعدد حياة البشر واحتداد مواطن الصراع على البقاء. "ولأن السرد يلعب دوراً كبيراً في المسعى الامبريالي، فليس من المفاجئ في شيء أن فرنسا وخصوصاً إنجلترا تمتلكان تراثاً غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير له في أي مكان آخر"¹. فهما الدولتان الأوروبيتان اللتان تسيطران على مناطق شاسعة خارج حدودهما بما لا يتوفر لأي دولة أوروبية أخرى. وإن آلاف الروايات كتبت تحت تأثير هذه المستعمرات بأي شكل من الأشكال. كما أن آلاف الروايات كتبها مستعمرون يعارضون بها خطابات كولونيالية مدمرة لثقافتهم. ف"القصص أيضاً تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص"². وفي هذه الحالة فإن الرواية مدفوعة شكلاً ومضموناً بحالة استعمار تغدو من أدوات المقاومة الثقافية الأكثر حيوية، رغم هويتها الغربية باتفاق أغلبية النقاد.

لقد ولدت الظاهرة الاستعمارية التي اجتاحت أقاليم شاسعة من محيط اليابسة حالة انشباك بالغة التعقيد داخل الثقافات الكونية، الأمر الذي افضى إلى تقويض نظرية النقاء الثقافي الذي تدعيه المركزية الغربية. إن تسميات اعتباطية من مثل "الثقافة الفرنسية" أو "الثقافة الأمريكية" أو "الثقافة الصينية" أضحت تسميات جوهرائية مفرغة من محتواها التاريخي. لم تترك الامبراطورية ركناً من أركان اليابسة خارج مجال تأثيرها في القرون القليلة الماضية. وبسبب ذلك غدت كل الثقافات جزئياً أو كلياً، وبسبب الامبراطورية مهجنة ومتخالطة ومتواشجة، ومتناسلة، يحيل بعضها على بعض. لقد صادر بعض الروائيين الأفارقة موضوعات جليلة في السرد الامبريالي، مثل البحث عن الرحلة إلى المجهول لمخلفاتهم الروائية، من بين هؤلاء الكيني نغوي والسوداني الطيب صالح، صاحب "موسم الهجرة إلى الشمال". وهي رواية كما يدل عنوانها

تشى باقتحام الرجل الملون فضاء الرجل الأبيض واختراق سرّيته، وامتلاك نسائه. فجسد الأنثى يرمز إلى الأرض المفتوحة وفض البكارة يرمز إلى مصادرة الخيرات¹³.

لقد ولدت الامبريالية الغربيّة التّقليديّة في الشّعوب الأصلائيّة، ومن حيث لا تشعر روح المقاومة وبأدوات ثقافيّة غربيّة، ليس أقلّها الرواية. توجد بين الثقافتين "مواجهة عنيدة وتقاطعا وعبورا في النقاش والاستعارة المتبادلة والمناظرة. إنّ العديد من كتاب ما بعد الاستعمار إشاقّة ليحملون ماضيهم في حناياهم ندوبا لجراح مهينة"¹⁴ فينجزون أعمالهم ردّا على تلك الإبداعات العظيمة والمتحيّزة- التي أساءت تمثيلهم وتعاملت معهم على أساس غيابهم. ولا تزال الامبريالية اليوم، رغم انسحابها من مستعمراتها التّقليديّة تولّد مقاومة محمومة ضدّ أطروحاتها التّحقيريّة لشعوب الهامش. لا تزال الامبريالية الغربيّة بزعامة أمريكا، رغم تغير المعطيات الدّوليّة الجيو- استراتيجيّة، تعمل على تأبيد هيمنتها على العالم الثالث، وتمنع كل محاولة للخروج من إسارها. لا شيء تغير، ولا شيء يوحى بالتّغير في المنظور القريب، فالغرب يحكم قبضته على الحكومات التي خلّفته في مستعمراته القديمة. ولذلك انبرى كثير من كتاب العالم الثالث الذين امتلكوا أدوات المقاومة الثقافيّة من الغرب نفسه الذي يضطهده وراحوا يفككون خطاباته الكولونياليّة ضمن مناهج غربيّة وانطلاقا من مرجعيّات الثقافات المحليّة. فالكاتب الفرونكوفوني ياسمينه خضرا ذي الأصول الجزائريّة يكتب رواية "فضل الليل على النّهار"، يستحضر فيها خطابين متناقضين، خطاب كولونيالي وخطاب ما بعد- كولونيالي، يسعى لتقويضه وتفكيك مقولاته العنصراويّة. ف"القراءة الطّباقيّة ينبغي أن تدخل في حسابها كلتا العمليّتين، العمليّة الامبرياليّة وعمليّة المقاومة لها"¹⁵.

كانت إنجلترا وفي وقت مبكّر جداً، مقارنة بالدّول الأوروبيّة الأخرى، مولعة بالانتشار خارج حدودها واكتشاف الأماكن النّائية والتّعرف عليها وامتلاكها

فالأرض لمن يفتحها ويزرعها. ولقد رافقت الرواية هذا الانتشار ودعمته، وشجعت المواطنين الأوروبيين على

مساندة حكوماتهم والقدوم إلى المستعمرات. ولا تخلو روايات القرن التاسع عشر من ذكر المستعمرات والاحتفاء بالوجود البريطاني وتلميع صورته المشرقة التي تتناسب مع الرسالة التحضيرية الملقاة على عاتق الرجل النبيل والمتحضر والمتعلم. كان الخطاب الكولونيالي عبر كل المؤسسات الثقافية والأدبية على الخصوص يشيد بالروح العلمية التي تسري في كل فضاء تمر عليه أنفاس الرجل الأبيض. فكانت أعمال فورستير (الطريق إلى الهند)، وكيبلينغ (كيم) ودانيل ديفو (روبنسون كروزوي)، وجاين أوستن (حديقة مانسفيلد) وعشرات الأعمال الأخرى لا تخلو من ذكر الإمبراطورية. فقد كان الأدب الروائي متورطاً في الشرط الامبريالي بعقائدية لا يخطئها الإدراك.

ولا يقتصر الأمر على بريطانيا فقط، فقد كانت فرنسا تنافسها في سباق محموم على المستعمرات. كان التزاحم بالمناكب على الأرض يثير المخيلة الغربية بشكل لا نظير له في تاريخ الآداب العالمية، وينتج أعمالاً جليلة تثبت أقدام الغرب على الأرض المصادرة. "نجد في فرنسا استخداماً سياسياً وقومياً دائماً لرأس المال الأدبي. فلم تكف فرنسا والفرنسيون عن ممارسة نوع من الامبريالية العالمية (فرنسا أم الفنون)، ولا سيما خلال عملياتهم الاستعمارية وكذلك في مجال العلاقات الدولية"¹⁶. ولقد استفحلت المخيلة الأدبية الفرنسية بالتزامن مع السيطرة على شمال إفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر. فكان لفرنسا أدباؤها وشعراؤها الذين رافقوها خلال احتلالها للجزائر وخلال حملة نابليون على مصر وكان لها رحلتها الذين جابوا إفريقيا والشرق وأقاموا فيهما وكتبوا عنهما. كتب شاتوبريان وجيرارد دو نرفال، رحلاتهما إلى مصر، وكتب فلوبار روايته "سلاம்பو" وكتب ألبير كامي "الطاعون" و"الغريب". كما سجل أندري جيد حضوره الأدبي في الجزائر، وتونس في روايته "اللاأخلاقى". لقد

كانت فرنسا تفاخر العالم بكوكبة من الأدباء من روائيين ورحالة شهد لهم كبار النقاد بطول كعبهم في مجال السرد الروائي أثناء القرن التاسع عشر ويعود ذلك إلى ثقلها التاريخي وحضورها الامبريالي خارج حدودها؛ فقد كانت القوة الاستعماريّة الثانیة بعد بريطانيا. وكانت هيمنتها على السّاحة الأدبيّة لا مرأى فيه. فقد كانت مركزاً للأدب العالميّة، وكانت تمسك بالإقرار الأدبي ولا تنازعها في ذلك أيّة سلطة ثقافيّة.

روبنسون كروزوي والاستحواذ على الأرض: يطالعنا هذا الشاب الإنجليزي اليافع والمشحون بالطاقة والعنفوان الذي هو من طبيعة الرّجل الأبيض، وهو يتحفّز للمغامرة وركوب أهوال البحر من أجل الاكتشاف والمعرفة بالأماكن النائية والمجهولة وامتلاكها في مرحلة متأخرة. انطلق في رحلة بحريّة مع والد صاحبه، ولكنهم سرعان ما وقعوا في أسر جماعة من القرصان، ليجد روبنسون نفسه أسيراً في جزيرة إفريقيّة. وراح يُعْمَل ذكاه وبصيرته من أجل الخروج من وضعه الإشكالي والصّعب. وما أن كلفه سيّد به رحلة صيد في عرض البحر مع عبد آخر يدعى "إسماعيل" حتّى انتعشت في خياله فكرة الهروب إلى البراري واستعادة حريّته. جهّز السفينة بالمؤن وبكل ما يحتاجه من أدوات بدائيّة تساعده في تأمين فراره. جلب شموعاً ومنشاراً وفأساً ومؤناً كثيرة وبندقية صيد. إنّها الأدوات الأساسيّة والضروريّة التي يحتاجها الإنسان البدائي لمقاومة عدائيّة الطبيعة.

قادته مغامرته إلى الإرساء في البرازيل، حيث يتواجد بعض الأوروبيين من بلدان شتّى. هنالك سيفجر مواهبه العقليّة من أجل بناء نواة حضارة غربيّة. اشترى قطعة أرض وأقام مزرعة سكر وسرعان ما حول الأرض إلى جنات بديعة ومخصّبة. يقول الرّاوي: "جنينا محصولاً جيّداً في السّنة التّالّيّة كذلك، وكان لديّ كل ما يتمنّاه الإنسان من مزرعة مثمرة ومال وأصدقاء"¹⁷. يخطر بالبال في هذا المقام الكولونيالي أنّ البراري العذراء والنّائية وغير المأهولة بالسّكان، أو ضعيفة التّأهيل تنتظر الرّجل الأوروبي لكي يخدمها ويحييها لتجود بعطائها.

لقد كانت فكرة اختراق الغرب للمناطق النائية والبعيدة عن حدوده، بالغة القوة والتجذر في الوعي الكولونيالي. "إن البلاد التي عبرت عليها مرة أنفاس الغرب المثقلة بالفكر العلمي، والتي تركت عليها هذه الأنفاس في عبورها علامة قادرة على البقاء، لا يمكن أن تعود كما كانت من قبل"^{8 1} خاملة وموحشة وبربرية. أقام الأوروبيون في المناطق التي عمروها في أمريكا اللاتينية وإفريقيا مزارع القصب السكري والقطن وكل ما تحتاجه صناعاتهم في الميتربول. وحولوا تلك المناطق إلى جنات بديعة وخصبة، ولكن كل ذلك من أجل مصلحة الغرب وليس أبعد من ذلك. ولقد سجل الأدباء والرحالة في سردياتهم هذا الانتشار الامبراطوري، وكانت الرواية أداة من أدوات هذا الانتشار.

إن اندفاع روبنسون للمغامرة والاكتشاف لم يهدأ، فهو لم يخلق للمكوث في الأرض وإنما هيأته الطبيعة لتأهيل اليابسة وتعميرها وتحضير سكانها. ألهب مشاعر أصدقائه الجدد من أجل القيام برحلة إلى أدغال إفريقيا التي كانت تداعب خيال الرحالة الأوروبيين منذ القرون الوسطى. في عرض البحر تحطمت السفينة ولم ينج منها إلا هو بفضل موهبته في السباحة وقدرته على مقاومة العاصفة البحرية. وجد روبنسون نفسه مع كلبه في جزيرة معزولة، لا يملك إلا بعض الأدوات البدائية كالأس والمنشار وبنديقيّة صيد ومسدس، وبعض المؤن التي استخلصها من السفينة المحطمة.

هناك بدأت عملية إرساء معالم حضارة أوروبية على جزيرة نائية وموحشة. تمكّن خلال سنوات من إنشاء مزارع وتربية قطعان المواشي، وبناء مساكن احتياطية. وتمكّن من أن ينقذ حياة أسير وقع في أيدي آكلي لحوم البشر الذين يترددون من حين لآخر على المنطقة. أطلق اسماً على العبد الذي حرّره وعلمه لغة الكلام، وأسلوب العيش على طريقته وعلمه القيم المسيحية التي تؤهله لحياة حديثة. بعبارة وجيزة لقد نقله خلال سنوات قصيرة من مرحلة الطبيعة إلى مرحلة الثقافة، وحوله إلى خادم أليف ينسجم مع النظام الثقافي للغرب.

كما أنه استطاع أن ينشئ تقويماً تاريخياً يمكنه من الإحساس بالزمن. وابتدأ التأريخ من يوم وصوله لهذه الجزيرة، أي يوم 30 سبتمبر. وأصبح يميز اليوم عن الغد والإثنين عن الأربعاء، وقد أسعده هذا¹⁹.

كان روبنسون "مؤسس علم جديد يقوم بحكمه واستعادته للمسيحية ولانجلترا"²⁰. إنه خادم للامبراطورية ومؤسس لأركانها في بداياتها الأولى. لقد كان الانجليز متحمسين لضم مزيد من المناطق الشاسعة لخدمة مواطنيهم في المركز، ولم يكن شغلهم تحضير العالم. ولا تنصيره. وخلاصة هذه الرواية التي تتماهى مع مغامرات الرحالة والمكتشفين أن بطلها يستحوذ على أقاليم نائية ويروض الأصلايين المتوحشين من أجل تحييد شريرتهم. وقد أسعفته عبقريته الأوروبية من بناء حضارة متكاملة العناصر، كما تمكن من تأمين حياته وحاجياته. لقد كان يتمتع - ككل الأوروبيين - ب"عقائدية للتوسع فيما وراء البحار، وهي عقائدية مرتبطة مباشرة في الأسلوب والشكل بسرديات الرحلات الاستكشافية في القرنين السادس عشر والسابع عشر التي وضعت أسس الامبراطوريات الاستعمارية العظيمة"²¹.

"إنَّ <<روبنسون كروزوي>> تتأول على أنها قصة رمزية تقول بالمغامرة والإنسان الخالق، ومواجهة المتوحش وتأديبه واستعمار أرضه"²²، وفي الحقيقة فإن كما هائلا من روايات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تلك التي تتخذ من الهوامش فضاء للرد تهدف للاستعمار والإلحاق والضم.

يرى نقاد الرواية الغربية الحديثون أن رواية "روبنسون كروزوي" هي أول رواية انجليزية حديثة، وقد صُممت على نمط الرحلات الاستكشافية للقرون الوسطى وعصر النهضة. وبالنظر إلى الدلالة الشمولية لهذه الرواية، يمكن اعتبارها استعارة أدبية، جيء بها لتمثيل ما يتمتع به الإنجليز من إرادة وتصميم وذكاء وقدرة على مواجهة التحديات وكسر العوائق الطبيعية والبشرية التي يمكن أن تحول بين المرء ومراميه. بدأ روبنسون كروزوي "فردية اقتصادية مبدعة

أو منتج نموذجي احتفى به روسو صاحب "العقد الاجتماعي"، (.....)، فهذا الفردي العظيم قناع إيديولوجي نابض بالحياة"^{2 3}. ولقد رأينا كيف أنّ البحر بكل ما يمثله من عنفوان وقوة عاتية وظّف رمزا لقوى الشرّ في رواية "موبي ديك" التي كتبها الروائي الأمريكي هيرمان ملفيل، (1851) والتي ذهب من خلالها إلى تمثيل قوة الرجل الأمريكي وقدرته على ملاحقة عدوّه، والتّيل منه. تدور هذه الرواية حول صراع تراجيدي بين حوت ضخم وإنسان. ويمكن أن نتخذ من هذا الصّراع الضّاري مشهدا تمثيليّا للوضع البشري وعلاقته بالوجود. لقد أريد للرواية أن تكون قصّة رمزيّة عن المشروع الأمريكي، عندما اكتشفت أمريكا ذاتها كقوة كونيّة وامبراطوريّة امبرياليّة بعد الحربين العالميتين. وهكذا كانت رواية "موبي ديك" نبوءة لما سيؤول إليه الأمر في النّصف الثاني من القرن العشرين، عقب تراجع قوة أوربا خارج حدودها.

في رواية دانيال ديفو، مثل البحر القوة الطّبيعيّة الكبرى التي يتعيّن على البحارة الانجليز مواجهتها من أجل التّمكن لامبراطوريّتهم في كل أركان اليابسة التي تعدّ بخدمة مصالح الأمّة البريطانيّة، ولقد واجه البحارة الانجليز خلال رحلاتهم هذه القوة بروح أسطوريّة من خلال روبنسون كروزوي، الذي قدّم لنا في مطلع الرواية، وهو بعد غلام، مكتمل الرّجولة، ومتحمّس ليكون بحاراً رغم معارضة والديه. لقد تجسّدت قيم الامبراطوريّة وروحها وعنّفوانها في شخصيّة بطل الرواية، الذي احتل أرضاً عذراء ونفخ فيها الرّوح الغربيّة المثقّلة بالعلم حتى حوّلها إلى حضارة مكتملة الأركان في بضع سنين.

ثورة على السّفينة باونتي: يأتي التّفكير في هذه الرواية في إطار البحث عن الوشائج التي تربط مسار الإمبراطوريّة الانجليزيّة بالرواية الحديثة، بالنّظر إلى التّلازم التّكويني بينهما، على مدار الأربعة قرون الأخيرة.

قرّرت الحكومة البريطانيّة القيام برحلة إلى جزيرة "تاھيتي" (هايتي حالياً) للحصول على شتلات من "شجر الخبز" الذي تبين أنّه يصلح غذاء جيداً وغير

مكلف للعبيد. ومن هنا، فإن أفضل مكان للاستثمار في هذه الشجرة المثمرة هو الهند الغربية التي كانت تحت الاحتلال البريطاني، وبها أغنى مزارع القصب السكرى والقهوة والقطن علماً أن غالبية العمال هم من العبيد ومن المحليين من غير الأوروبيين. وقد أُطلق على هذه الرحلة اسم "باونتي" وهو اسم السفينة التي ستنجز الرحلة، تحت قيادة القبطان البريطاني "ويليام بلاي".

وقد سحب بلاي الطالب "بايام"، الذي كان منذ صغره مولعاً بكتب الرحلات والأسفار، "وخصوصاً تلك التي تصف أخلاق الناس وعاداتهم في جزر هايتي. وقد أُسندت إليه مهمة علمية تتمثل في كتابة قاموس علمي حول لغة القبائل الهايتية وعاداتهم وثقافتهم"^{4 2}. ومن هنا فإن هذه الرحلة ستكون ذات أهداف مزدوجة. أهداف اقتصادية وأخرى علمية. والهدفان يتكاملان من أجل خدمة الامبراطورية. إن مهمة الطالب بلاي هي مهمة فيلولوجية إثنوغرافية انثروبولوجية. فدراسة الشعوب غير الأوروبية التي شرعتها دوائر البحث الأوروبية تهدف إلى دراسة عقليات تلك الشعوب وثقافتها من أجل احتوائها والهيمنة عليها في مرحلة متأخرة، ومصادرة خيراتها واستعباد أفرادها.

انطلقت الرحلة البحرية باتجاه هايتي، "وكانت في طريقها توثق الجزر المجهولة التي تكتشفها، وتضيفها إلى الخرائط الجغرافية الحديثة. وصلت الرحلة في ظروف مناخية صعبة، وبتضحيات ضخمة، ما يدل على ضخامة المصالح الاستعمارية المرجوة من هذه الرحلات"^{5 2}. لقد كانت أوروبا انطلاقاً من القرن السابع عشر تتحرك طويلاً وعرضاً من أجل اكتشاف المناطق النائية ومعرفتها والسيطرة عليها. فالمعرفة تولد القوة على الإنشاء وعلى الفعل، وتجعل الحركة فعلاً واعياً ومثمراً.

وما أن وصل الطالب الإنجليزي "بايام" إلى الجزيرة حتى التمس عائلة وأقام عندها من أجل إنجاز عمله، وانتهى بأن تزوج إحدى بنات الجزيرة وأنجب منها بنتاً. والملاحظ أن الضباط الآخرين هم كذلك اختلطوا بالأهالي واستأنسوا

بهم، رغم الاختلاف الثقافي والعرقي ورغم المسافة التي تفصل أوروبا عن أمريكا اللاتينية.

تعرضت السفينة إلى تمرد من طرف بعض عناصرها، الذين سيطروا على السفينة وطرّدوا القائد ويليام بلاي مع مجموعة من البحارة وألقوا بهم في عرض المحيط في قارب نجاة صغير، وأسلموهم إلى مصير مجهول. كان ويليام بلاي قائدا صارما وغير متسامح مع بحارته، بحيث أيا ضابط يرتكب خطأ يتعرض إلى أقصى العقوبات الجسدية.

ثار بعض البحارة ضد هذه المعاملة القاسية، وقرروا التخلص من قائدهم بينما كانت الرحلة في طريق العودة معبأة بشتلات "ثمر الخبز"، وهي شجرة تثمر ثمارا تصلح غذاء للعبيد، وتوفر نفقات كثيرة على المزارعين البريطانيين الذين يشغلون العبيد في مستعمراتهم بأمريكا الجنوبية والهند الغربية. ونظرا للقيمة الاقتصادية التي تكتسيها هذه الشجرة، فإن الحكومة الملكية سخرت أفضل رجالها لهذه الخدمة الجليلة التي تخدم الامبراطورية بشكل مباشر. "ظهرت بوادر التآمر والعصيان التي ستدمر الرحلة تدميرا يدعو إلى البؤس واليأس"²⁶. كان ذلك بعد أن أقلعت السفينة محملة بالشتلات، عائدة من هايتي إلى إنجلترا، على غير إرادة أغلبية البحارة الذين استحسنوا مزيدا من الإقامة في هذه الجزيرة الوديدة. وكان الضابط "فلتشر كريستيان" هو الذي قاد العصيان مع مجموعة من رفاقه الناقمين على بلاي.

تمكن المتمردون من السيطرة على السفينة "بونتي" وأنزلوا "بلاي" مع رفاقه الذين رفضوا دعوة العصيان، على قارب صغير للنجدة، وعادوا بالسفينة أدراجها. لقد كانوا يرغبون في الاستقرار في جزيرة هايتي لما وجدوه لدى الأهالي من حفاوة وترحيب وصداقة. كان البحارة أثناء رسو السفينة لعدة أيام قد اختلطوا بالأهالي وأكلوهم وجالسوهم وكانت لبعضهم مغامرات جنسية وعاطفية مع

الأصلاّنّيات. لقد كانوا منبسطين من هذه التّجربة بعيدا عن صخب المدنيّة في أوروبا التي بدأ التّصنيعُ يغزوها.

وكان من حصيلة هذه التّجربة أن نقل لنا القائد "بلاي" انطباعاته عن بعض عادات المحليين وثقافتهم الشّعبيّة التي كانت تبدو على قدر كبير من الغرابة والشّدوذية. فقد كان الأهالي أثناء الولائم يقومون بإطعام أميرهم "تينان"، ويتولّى أحدهم إطعامه بيديه "وإدخال الطّعام إلى فمه، ثم ينتظر حتى يبتلعه فيزقّ إليه كميّة أخرى؛ كلّ ذلك و"تيناه" جالس لا يبدلُ أيّ مجهود سوى المضغ"²⁷. وقد عني ذلك أنّ هذه الأجناس البشريّة على درجة عالية من الكسل والخمول. فإذا كان رئيسهم لا يتحمّل عناء اللقمة يوصلها إلى فيه، فإنّ قومه لا بدّ أن يكونوا على شاكلته. من العادات الأخرى التي نقلتها لنا عدسة "بلاي" المقارنّة في هذه الرّحلة أنّ النّساء لا يتناولن طعامهنّ حتّى يتأخّر كل الرّجال. "جرت العادة في تلك الجزيرة بتحريم تناول النّساء لطعامهنّ إلّا بعد انتهاء الرّجال من ملء بطونهم. ومن المحرم أيضا أن يشترك النّساء في الطّعام مع الرّجال ويجب عليهن تناول طعامهن بعيدا عنهم"²⁸. كان من بين ما لاحظته بلاي بعقله المقارن أنّ الأهالي الذين أبدوا قدرا كبيرا من الانبهار بمنتجات الحضارة الغربيّة من خلال الهدايا التي جاءهم بها البحارة. وقد بدا أنّهم على درجة كبيرة من التّخلّف والبدائيّة. وأنّ حسّهم الأخلاقي ضعيف، بدليل أنّهم تجرّأوا على سرقة بعض الأدوات من السّفينة على حين غفلة من الحراس.

كان بلاي يعتمد إلى شراء ودّه من خلال الهدايا وإقامة المأدبات على متن السّفينة ليس حبّا فيهم ورغبة في مشاركتهم حياتهم والتّقرب منهم، ولكنّ اتّقاء لشريّتهم التي توشك أن تتجلّى لأيّ سبب.

إنّ النّظرة الدّونيّة التي يضمّرها الإنجليزي للآخرين لا تجد مسوغها إلّا في بنيّة الفكر الامبريالي الذي يشكل وعي الرّجل الأبيض في أوروبا القرون الوسطى والحديثة. لم يتواجد البريطانيون خارج حدودهم من أجل التّواصل مع آخريهم

وتبادل الخبرات والمنافع والتأسيس لعلاقات إنسانية بين شعوب اليايسة، ولكنهم كانوا يسعون للهيمنة على شعوب أمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا، خدمة لمصالح المركز. يقول رائد المذهب الإنساني الإسباني "فرانثيسكو دو بيتوريا" اللاهوتي والحقوقي للقرن الخامس عشر عن هنود أمريكا: "على الرغم من أن هؤلاء البرابرة ليسوا مجانين تماما إلا أنهم ليسوا بعيدين عن الجنون. (...). إنهم ليسوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، شأنهم في ذلك شأن المجانين، أو حتى البهائم المتوحشة والحيوانات، وذلك بالنظر إلى أن غذاءهم ليس مستساغا بدرجة أكثر من غذاء البهائم"²⁹. من وجهة نظر أنثروبولوجية بدا الاختلاف مع الأغيار تفاوتاً عرقياً وثقافياً ينزع نحو مركزية إثنية مفرطة الحساسية إلى درجة تدفع بالأوروبيين إلى اعتبار الملونين، وبيض أستراليا وإرلندا دونيين غير قابلين لتجاوز قصورهم الجبلي. ومن هنا سعوا إلى استعمارهم واستعبادهم تحت ذريعة رسالة تحضيرية وهداية بتفويض من الكنيسة، السلطة الروحية العليا في القرون الوسطى، وإلى غاية عصور النهضة المتأخرة.

الأصلائي الغائب في روايات البير كامى: وُلد ألبير كامى في الجزائر عام 1913 في قرية موندوف في الكولونيالية، وعلى بعد ثمانية عشر ميلا من مدينة بون (عناية سابقا). أسست هذه المدينة سنة 1849 "على أيدي عمال حمر شحنتهم الحكومة من باريس ومنحتهم أراضي صادرتها من الأصلائين الجزائريين وتظهر أبحاث بروشاسكا أن موندوف بدأت كتابع لإنتاج الخمور يدور في فلك بون"³⁰. كانت أمه عاملة بيوت إسبانية ووالده مراقب أقبية خمور في قريته. ونشأ بها وأمضى كل حياته فيها، في ظل وجود فرنسي متمكن، ووجود عربي متذبذب بين التمرّد والثورة. ولعل ذلك هو الذي جعله يكون من أشدّ الكتاب إيمانا بالقومية الفرنسية، وتشبثا بأحقية فرنسا في إلحاق الجزائر. كان يرى أن كل الأقليات الإثنية التي كانت موجودة بالجزائر، بما فيها اليهود من حقها أن

تملك الجزائر، ومن هنا فالعرب -على حدّ تعبيره- هم آخر من يحقّ له أن يجادل على انتمائه لهذه الأرض.

وقد يكون هو الرّوائي الفرنسي الوحيد من الذين نشأوا بالجزائر، والذي يمكن اعتباره مؤلفاً ذا مقام عالمي بفضل طول كعبه في مجال السرد الرّوائي. "إنّه على قدر بالغ من الأهمية في سياق الاضطراب الاستعماري البشع الناتج من مخاض تفكيك الاستعمار الذي مرّت به فرنسا في منتصف القرن العشرين"^{1 3}. لا بدّ من التذكير بأنّ فرنسا قد فقدت كثيراً من مستعمراتها في أمريكا الشماليّة والكاريبي والهند بسبب المزاومة البريطانيّة وهي تكاد تفقد توازنها مع اشتداد المقاومة الجزائريّة، وحرب التحرير الكبرى.

وسنلمس عمق الوعي الكولونيالي لدى البير كامو من خلال أهم روايتين كتبهما في ظلّ الوجود الفرنسي في الجزائر، وفي ظلّ عقيدة استعماريّة بالغة التماسك. في رواية "الغريب" (L'etranger)، تتجلّى العقيدة الوجوديّة التي تمثّل جوهر فلسفة الرّوائي كامو. وهي عقيدة عدميّة، ترفض الأديان، وتستخفّ بالقيم الإنسانيّة. تعطي القراءة الأولى لرواية "الغريب" (L'etranger) انطباعاً راسخاً بأننا في فضاء فرنسي بكلّ معالمه الحضاريّة والتاريخيّة. فأسماء المدن فرنسيّة، وأسماء الشّخصيّات الرّوائيّة هي الأخرى غربيّة، وكذلك أسماء الشّوارع والقرى، فعلى مدى قرن أو يزيد، ظلّت فرنسا تعيد بناء المدن الجزائريّة على النمط الغربي، وتعطيها أسماء فرنسيّة، مستفيدة من الثروات الجزائريّة الموهوبة. وظلّت تستقدّم أوروبيين من المركز وتطرد العرب من أراضيهم باتجاه الأرياف والتجمّعات الهامشيّة المعزولة.

بالعودة إلى رواية "الغريب"، بدا واضحاً أنّ الأَصْلانيين لا يحظون إلاّ بوجود عرضي ونادر وهامشي. وهم فوق كلّ ذلك بدون أسماء ولا معالم ولا صفات. "صحيح أنّ مורسو يقتل عربياً، بيد أنّ هذا العربي لا اسم له ويبدو دونما تاريخ دع عنك أن يكون له أبٌ أو أمٌّ"^{2 3}. وأكثر من ذلك فإنّ كل العرب الذين

ذُكِرُوا عرضاً في الرواية لا يُسمع لهم صوت، وإذا نطقوا فحديثهم همسٌ وصورهم أطيافٌ باهتة لا شكل لها ولا تعييناً هويّاً يدلّ عليها. إنهم أشياء غير مرغوبٍ فيها، ويجب إزاحتها من المشهد. فكما أنّ الوجود العربي في المدينة الكولونيالية وجود ضار ومضرٌّ، فإنّ وجوده في العمل الاختلاقي من شأنه أن يزعج الروح الغربية النقيّة والمتحضّرة.

إذا أنت أسقطت الاسم عن الإنسان كائناً من كان، ولم تُلحِقْه بأسرة وموئل اجتماعي فإنّك تكون قد أفقدته هويّته وتاريخه وذاكرته الثقافية. وكذلك الشأن بالنسبة للمدن والحارات والشوارع. إن السّلطة الكولونيالية لما عمدت إلى أسماء المدن ومعالمها التّاريخيّة فغيرتها، إنّما كانت تقوم بعمليّتين مزدوجتين في نفس الوقت. كانت تلغي تاريخاً وتستنبت بدلاً عنه تاريخاً آخر كولونياً.

وإنّ الرّأوي في "الغريب" عندما يهمل ويتجاهل أسماء شخصيّاته العربيّة إنّما يسعى إلى الإشهاد بأنّها شخصيّات ميّنة ولا تأثير لها مطلقاً وليس لها دور في الجزائر الفرنسيّة. كانت المطاردة بين مורسو وأصدقائه، - كل باسمه -، وبين العرب في الجوهر من البنية السردية للرواية. وفي أكثر من ثلاثة مواطن يشير الرّأوي إلى خصومه دون أن يسمّيهم. في البداية نقرأ قوله: "رأيت جماعة من العرب مستندين إلى واجهة مكتب التّبغ، وكانوا ينظرون إلينا بصمت، ولكنّ على طريقتهم لا أكثر ولا أقلّ ممّا لو كنّا أحجاراً أو أشجاراً ميّنة"³³. يدلّ صمت العرب في هذا المقام الوصفي على المخاتلة والخداع، وربّما الجبن. فهم لا يجروؤن على المواجهة العلنيّة لخصومهم. كما قد تعني أنّهم لا يفهمون لغة المحتل، أو أنّهم يرفضون التّخاطب بها. ومهما يكن، فهو موقفٌ عدائي تجاه الفرنسيين.

يغادر مورسو وأصحابه الشّارع، وبيتعدّون بعض الخطوات، وبعد أن تأكّدوا أنّ العرب "ما يزالون في مكانهم ينظرون باللامبالاة نفسها إلى المكان الذي تركوهم فيه"³⁴ استقلوا الحافلة باتّجاه البحر. وعندما وصلوا إلى الشّاطئ، وبينما كانوا في غدوّ ورواح رأوا "في أقصى طرفي الشّاطئ عربيّين يرتديان الثوب الكحلي

السّميك ويتقدّمان في اتّجاههم" ³⁵. وعلى هذا النّحو تستمرّ المطاردة بين العرب والفرنسيّين، إلى أن ينفرد مورسو بأحدهم في زاوية، فيضرب فيه أربع رصاصات بكل برودة دمّ. واللافت في هذه المطاردة أن مورسو لا يتحدّث عن العرب بأسمائهم، ولا يسمح لهم بالكلام لمعرفة نواياهم وأفكارهم. وكل شيء إذا خاضع للتأويل الاعتباري إرضاء لنفسية المستعمر ووعيه الإقصائي الذي يسعى إلى قتل آخره بأكثر من طريقة، وفي أكثر من مكان بينما هو يحتل أرض هذا العربي، ويسقط كل تاريخه، ويحيله إلى أجنبي، أو طالب لجوء سياسي، يسأل عطفًا ديمقراطيًا، أو رحمة مسيحيّة، أو عونًا إنسانيًا.

كان الرّأوي مورسو يصفُ بهو السّجن الذي حُبس فيه على ذمة التّحقيق بعد أن قتل العربي، وكان ذلك عند زيارة أهالي السّجناء لأقاربهم المحبوسين. فكنت تسمع أحاديث الفرنسيين من الرّوّار والمساجين على حدّ سواء، وكانت أصواتهم صادحة باستثناء العرب الذين لا تكاد تشعرُ بوجودهم. "كان معظم المسجونين العرب كعائلاتهم يجلسون القرفصاء وجها لوجه، ولم يكونوا يصرخون. وبالرّغم من الضّجيج فقد تدبّروا أن يسمع بعضهم بعضا، وهم يتحدّثون بصوت منخفض جدّا. كان همسهم الأصمّ المنطلق من تحت يَشكّل ترجيعا متواصلا للأحاديث المنعقدة فوق رؤوسهم" ³⁶. كان العرب متكدّسين حول بعضهم، وكأنّهم يعيشون تهميشا مضاعفا. السّجن والأركان المظلمة، والصّوت التّحت- أرضي. كان مورسو يدقّق في وصف بعض المساجين الذين تعلو أصواتهم من كل صوب، بين مُسكّم ومودّع، وسائل ومجيب. وكان الضّجيج يملأ الفضاء ويشعرك بأنّ هناك حياة ذات طعم ما، باستثناء العرب الذين كان همسهم "يستمرّ من تحتنا، وفي الخارج بدتْ شمس وكأنّها تنتفخ عند كوة" ³⁷. إنّها شمس الغرب تشرق على هذه الأرض التي لم تعد تنفّس هواء عربيًا.

أخذ كامو من الجزائر إطارا مشهريا لسردياته سواء في "الغريب" أم في "الطّاعون" أم في "المنفى والملكوت". وكانت الجزائر في تلك الأثناء، تُتأوّل

"باعتبارها فرنسا وبشكل أشدّ تخصيصاً فرنسا تحت الاحتلال النّازي"³⁸. إنّ مثل هذا الاختيار من قبل كامو ليس موقفاً سردياً خاملاً، ولا هو بالبريء. فمحاكمة مورسو بسبب قتله للعربي هي مشهدٌ استعراضي لتجميل صورة فرنسا وعدالتّها، وهو محاولة عقائديّة لتسويق الاحتلال الذي يدافع عن الأقليات الإثنيّة -إن صحّ أن الأصلاّنيين أقلّيّة- ويسخر كل أجهزته القضائيّة والعسكريّة والعلميّة لتنميّة حياة الجزائريّين وتحضيرهم والانتقال بهم إلى طور الثقافة والحداثة الغربيّة.

بالنّظر إلى تاريخ كتابة هذه الأعمال -النّصف الأوّل من القرن العشرين- يتبيّن أنّها محاولة مستميّة للتشبّث بالامبراطوريّة التي بدأت تفقد بعض أركانها بالنّظر إلى المتغيّرات الدّوليّة المكارثيّة التي كانت تعصف بالقوى الاستعماريّة التّقليديّة، وبسبب اشتداد الوعي القومي في أوساط المسحوقين داخل المستعمرات الأوروبيّة عموماً والفرنسيّة خصوصاً. فالثورة الجزائريّة لا نظير لها في العالم الحديث، لا في إفريقيا ولا في آسيا.

الخلاصة: تتّضح الآن بعد تحليل ثلاث روايات، اثنتين بريطانيّتين، وواحدة فرنسيّة العلاقة العضويّة بين الرواية باعتبارها منجزاً جمالياً، وبين الامبراطوريّة باعتبارها مصالح منجزة على أرض الواقع، وسياسات وعلاقات قوّة وسيطرة وهيمنة.

لما ظهرت الرواية بديلاً عن الملحمة كانت البورجوازيّة هي التي تبنّتها وحملتها هموم الطبقة الوسطى ونضالاتها من أجل تحقيق الصّعود الطبقي وتخطّي تناقضات المرحلة، كما حملتها جراحات المجتمع الرأسمالي، وأوجاعه وفساد القيم الإنسانيّة في ظلّه. لقد عكست رواية الرأسماليّة تشييء الإنسان واغترابه بفعل السّقوط الأخلاقي للمرحلة.

لما ظهرت بوادر التّوسّع الأوروبي خارج حدوده، رافقت الرواية مغامرات البحارة البريطانيين في المحيطات التي خاضتها باتجاه القارة الأمريكيّة والهند وإفريقيا

كما رافقت حملات الامبراطورية الفرنسية خارج حدودها شرقا وغربا. من صلب هذه الوقائع التاريخية ذات البعد الكوني استوحت الرواية موضوعاتها وكيفت أشكالها الجمالية بين السرد الرحلي والسرد الاختلاقي. وهكذا تعلق السرد بمصالح الامبراطورية وانشغل بتعزيز انغراسها في التربة التي تحتلها، وفي شرعنة هذا الاحتلال وتسويغه من الناحية الأخلاقية. لقد كانت معظم روايات القرن الثامن عشر والتاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين تتخذ من مستعمرات الدول العظمى فضاء سرديا أثيرا في محاولة محمومة لربطها بالمركز وتفتيت علامات التميز التي قد تفضي إلى شعور بالاختلاف الثقافي لدى الأصلايين، شعور يمكنه أن يتطور إلى مطالبة بالانفصال وفك الارتباط مع المركز.

ويمكننا أن نتساءل، كم من الروايات لم تكن لتوجد أو تُكتب لو لم تغادر أوروبا حواضرها، ولم تحتل أي بلد؟ وكم من الروايات التي كتبها روائيون من الهامش للرد على الخطاب الكولونيالي وتقويض أسسه، وحرمانه من الشرعية لن تجد النور في ظل غياب الامبراطورية؟ كم عدد الروايات التي كتبها سكان الهامش من أجل استرجاع الهوية وتأسيس الذات المستلبة ستختفي؟. إن الجواب عن هذه الأسئلة يبين إلى أي حد انغمست الرواية في لعبة المصالح الكبرى للامبريالية. إذا سحبنا كل تلك القبضات السردية من التراث الغربي فإنه لن يبق إلا الشيء القليل، وسيزول كل عمل جليل.

لم تكتف الامبراطورية بمصادرة الرواية من أجل الترويج لنفوذها. بل إن هناك علوما إنسانية ما كانت لتوجد لولا الظاهرة الاستعمارية والحاجة إلى غزو المناطق خارج حدود أوروبا. الاستشراق على سبيل المثال انزاح عن أهدافه العلمية إلى علم متورط في الشرط الامبريالي. وكثيرا ما كانت الحكومات الاستعمارية في مستعمراتها تتخذ من كبار المستشرقين خبراء سياسيين وايدولوجيين. لقد خدم الاستشراق الحكومات الاستعمارية عندما جعل من

أهدافه البعيدة تسويغ الاستعمار وتبريره بل وإرشاده إلى سبل السّيطرة على "البرابرة" الذين لا يفهمون إلا لغة القوّة. لقد عمل الاستشراق على تكريس هيمنة الرّجل الأبيض على الملونين وجادل كثيرا على أن ذلك هو في مصلحة الطّرفين على حدّ سواء.

لقد ولّد الاستعمار والحاجة الاقتصادية لأوروبا ظهور علم الإناسة، ذلك الذي يبحث في علم السّلالات البشريّة ويدرس طبيعتها وتكوينها الجبليّ. فهو من هذه النّاحيّة سليل الاستعمار. إنه العلم الذي يدرس نفسيات الشّعوب وثقافات وعاداتها وتقاليدها. وكل ذلك ضروري لترويض الأصلاّنيين وحملهم على تقبل الحداثة الغربيّة.

المصادر والمراجع:

المصادر:

- 1- ألبير كامو، الغريب، ترجمة عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب، بيروت- لبنان. طبعة عامّة 2013.
- 2- دانيال ديفو، روبنسون كروزوي، ترجمة مروّة عامر الحق، مراجعة إيمان عبد الغني نجم، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، ط الأولى 2013
- 3- ويليام بلاي، ثورة على السفينة بونتي، ترجمة مختار السّويّفي، مراجعة محمّد العزب موسى، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط الأولى 1985.

المراجع:

- 1- إبراهيم بوخالفة، أطياف الاستشراق، دار رؤية للنشر والتّوزيع، القاهرة- مصر الطبعة الأولى 2018.
- 2- باختين ميخائيل، الرواية والملحمة، ترجمة جمال شحيد، معهد الإنماء العربي بيروت- لبنان، ط الأولى 1986.
- 3- باسكال كازانوف، الجمهوريّة العالميّة للأدب، ترجمة أمل الصّبّان، تقديم محمّد أبو العطا، المجلس الأعلى للثقافة، مصر. ط الأولى 2002.
- 4- تيزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، ترجمة بشير السّباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط الأولى 1992.
- 5- سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت- لبنان، ط الثانية 1984.
- 6- // // الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب بيروت- لبنان ط الثالثة 2004.
- 7- فيصل دراج، الرواية وتأويل التّاريخ، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء- المغرب ط الأولى 2004.
- 8- لومبا أنيا، نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، ترجمة محمّد عبد الغني غنوم، دار الحوار سوريا، ط الأولى 2007.

الهوامش:

- ¹ - ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ترجمة جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، بيروت- لبنان الطبعة الأولى 1982. ص 32.
- ² - ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ص 34.
- ³ - المرجع نفسه، ص 35.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص 20.
- ⁵ - فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط الأولى 2004. ص 14.
- ⁶ - فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، ص 124.
- ⁷ - المرجع نفسه، ص 42.
- ⁸ - السعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت- لبنان، ط الأولى 1984.
- ⁹ - كلود ليفي شتراوس، العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط غير مذكورة. ص 41.
- ¹⁰ - السعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب. بيروت- لبنان ط الثالثة 2004. ص 139.
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص 67.
- ¹² - المرجع نفسه، ص 58.
- ¹³ - لومبا أنيا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم دار الحوار- سوريا. ط الأولى 2007. ص 158.
- ¹⁴ - سعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ص 100.
- ¹⁵ - سعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ص 135.
- ¹⁶ - باسكال كازانوف، الجمهورية العالمية للآداب، ترجمة أمل الصبان، تقديم محمد أبو العطا المجلس الأعلى للثقافة، مصر. ط الأولى 2002. ص 41.
- ¹⁷ - دانيال ديفو، روبنسون كروزوي، ترجمة مروة عامر الحق، مراجعة إيمان عبد الغني نجم، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، ط الأولى 2013. ص 29.
- ¹⁸ - سعيد إدوارد، الاستشراق، ص 223.
- ¹⁹ - روبنسون كروزوي، ص 47.

- 20- سعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ص 138.
- 21- المرجع نفسه، ص 138.
- 22- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، ص 20.
- 23- المرجع نفسه، ص 19.
- 24- إبراهيم بوخالفه، أطياف الاستشراق، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى 2018. ص 102-103.
- 25- المرجع نفسه، ص 103.
- 26- ويليام بلاي، ثورة على السفينة بونتي، ترجمة مختار السويدي، مراجعة محمد العزب موسى الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الأولى 1985. ص 147.
- 27- ويليام بلاي، ثورة على السفينة باونتي، ص 85.
- 22- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 29- تيزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة ط الأولى 1992. ص 161.
- 30- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 232.
- 31- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 233.
- 32- سعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ص 236.
- 33- ألبير كامو، الغريب، ترجمة عائدة مطرجي، دار الآداب بيروت- لبنان، طبعة عام 2013. ص 64.
- 34- المصدر نفسه، ص 65.
- 35- المصدر نفسه، ص 70.
- 36- المصدر نفسه، ص 93.
- 37- المصدر نفسه، ص 95.
- 38- سعيد إدوارد، الثقافة والامبريالية، ص 235.

